الأمة الإسلامية.. الواقع والمأمول

الدكتور عمار جيدل
كلية العلوم الإسلامية. جامعة الجزائر

يفرض تناول الموضوع من الناحية المنهجية عرض مختلف الخلفيات الفكرية لتجاوز محنة الانحطاط،وإصلاح أوضاع الأمة،ثم نعرّج على مختلف المشوشات الفكرية التي تحول دون التفكير السوي في التقدم،لنخلص إلى الفكرة معقد الأمل في اكتشاف المشكلة والإحساس بها قبل التفكير في حلها لأن تحديد المشكلة والإحساس بها يسبق التفكير في حلها.

أولا : الخلفية الفكرية

تتجاذب التيارات الفكرية المحلية مجموعة من المدارس الإيديولوجية، تتقاطع مع بعضها في السعي نحو تجاوز الأمة محنة التخلف والتأسيس لأنموذج التقدم والتنمية،كما تشترك غالبيتها في مجموعة من الميزات:

1 – فقد الإحساس بالانتماء العثمر:

ا – تيارات فكرية غربية عن الموروث الثقافي والاجتماعي للأمة،مما جعلها مرتعا للنخب الفكرية والأكاديمية المتصلة من أمتها،بسبب فقدها القدرة على التواصل معها،وهوما يدفعها باستمرار إلى التركيز على هدم الفكر المحافظ،ظنا منهم أنّ الفكر المحافظ يحول دون قيم أفكارهم،واستيعاب أطروحاتهم،فيكون هذا الفكر بفعل ممارسته فكرا هدميا لا يقدم خلفية فكرية معينة بقدر السعي الدؤوب الى استئصال الفكر المخالف.([1])

ولعل من أبين نماذج تلك التيارات،الاتجاهات العلمانية بصورتيها (العالمية/المطلقة) أوالموطنة(المحلية) التي يؤسس لأطروحاتها بحجج من موروثنا الثقافي،مثل دمقرطة الإسلام، أوعقلانية الإسلام،....

ب – التيارات الفكرية العرقية،الأحزاب القومية،تغالي بعض الاتجاهات الثقافية والفكرية على التميّز العرقي،فتجعل منه برنامجا،لا تحسن التغني بغيره،بل وتعطيه الأولوية المطلقة على حساب الإنتماء إلى الأمة وموروثها الثقافي

والديني،بحيث يصبح الانتماء الفرعي أصلا والانتماء الأصلي مبعدا عن الاهتمام،وقد لقيت هذه الأطروحة تأييدا من قبل قوى أجنبية،وخاصة الفرنسية في المغرب العربي،والإنجليزية والأمريكية في الشرق العربي([2]).

ح – تيارات فكرية إسلامية أودينية تعيش التديّن مذهبا مزاحما للدين في أصوله البيّنة،أوتعيش في غير اللحظة الحضارية الراهنة،فتصوّرت خصومات وهمية لا وجود لها في غير مخيّلات منظريها،أوعاشت الحياة السياسية كسائر الأحزاب الأخرى،فضيّعوا مصداقية المتديّنين بإقبالهم على الدنيا والتهالك عليها في تجربتهم السياسية([3])،فغيّبت الرؤية الحضارية للدين،وافتقدنا في تصرّفاتهم قيم العدالة والتواضع والخدمة العامة،وظهرت فينا نقائضها،فبدت الأنانية،وحب الدنيا(أم الخبائث السياسية والاقتصادية والاجتماعية)،والتعصّب المقيت،...ومن ثمّ وضعت خطط غير واقعية للتغيير،مما أفقدها الفعالية المنشودة،وضيّع المصالح العامة للأمة والمجتمع،وسرى فيهم التعلّق بالمصالح الخاصة على حساب حاضر الأمة ومستقبلها،إننا افتقدنا فيهم الرسالية ومقتضياتها،من تضحية وفداء وإخلاص.

كما سرى في مجمل التيارات الإسلامية تغليب الهموم التكتيكية المرحلية على حساب الانتصار للأمة،فالمتصل بالسلطة المتحالف معها لا يرى الحل في غير ذلك المسلك،والمنفصل عنها لا يرى الحلّ في غير المعارضة،بل ويذهبون في ذلك إلى أبعد مدى،فيميلون إلى الاتهام المتبادل لبعضهم، والأدهى أن يتعلق الاتهام بالنيات، وهو ما لا يمكن إثباته أو نفيه،وفق المعايير البشرية،متغافلين عن قاعدة أساسية في التعامل الاجتماعي إسلاميا"**حسن الظن بالمؤمنين**"([4])،لهذا يمكن أن يطال النقد والتمحيص المسالك السياسية والتجربة الاجتماعية والاقتصادية،لكن دون أن ينتقل إلى الاتهام بالنفاق أو...ولاشك أن" مجموع تلك التصرفات تنبئ بتخلفنا عن تمثّل مبادئ ديننا من جهة،تخلفنا في امتلاك الأدوات المنهجية في تحديد استحقاقات اللحظة الراهنة من جهة أخرى.

2 – **فقد الإحساس بالوحدة**

تتسم تلك التيارات الفكرية على تنوّع مشاربها، بفقد الإحساس بالانتماء إلى الأمة؛ فغاب في تصرّفها السياسي والاجتماعي النزوع نحو الوحدة، وتجاذبها التصوّرات والتصرفات الأنانية المفرّزة،فكانت تلك النقائص سببا في الاسهام في

تهديد وحدة ، وتجلت تلك الرؤية في تصرفات تدل بنفسها على الانحطاط بكل معانيه،الفكرية والمعرفية والاجتماعية، فظهرت فينا أمراض فتاكة،على رأسها:

أ – الولاء مقدم على الكفاءة: المجموعة أو الزعيم لا يختارون غير الموالين ولاء تاما لا تشوبه شائبة،فلا يرضون بوجود معارض داخل الصف أو داخل المؤسسة،رغم أن المعارضة وسيلة فعالة في تنمية القدرات المعرفية والإسهام الفاعل في التأهيل لسياسي والاجتماعي،بل يعد أهم وسيلة في تطوير الوعي السياسي للأمة جميعا،وذلك بما تفرضه المطارحة الفكرية بين المخاصمين من تطوير الآليات بما ينسجم مع ما يطرح من أفكار وبرامج.(٥)

ب – الشرعية النضالية عوض الشرعية العلمية: ينال الرجل في الحزب أو الحركة مكانته بماضيه النضالي لا بكفاءته العلمية،فتظهر فينا الشرعية النضالية بدل الشرعية العلمية.

ج – الشرعية التاريخية بديلا عن المؤهلات العلمية والخبرة المهنية:والشرعية التاريخية لا تختلف عن الشرعية النضالية،فترى الرجل زعيما منذ نشأة المؤسسة إلى أن يموت الزعيم أو تحل الحركة،أما أن يستقيل أو نؤسس للتداول على تسيير المؤسسة،فنحن من أبعد الخلق عن ذلك،والمرض حسب تقديرنا عام،يشمل المؤسسات السياسية والحزبية والمهنية والنقابات والحركات...على تنوع مشاربهم(٦)،إنها تصرفات منحطة لا تشد تقدما ماديا أومعنويا.

د – الشرعية الابتلائية عوض التكوين العلمي:عرفت الحركات السياسية – على تنوع مشاربها–فكرة الشرعية الابتلائية،ومفادها أن الرجل المنصب بقدر عدد سنين سجنه،فكلما طالت كان أرقى...بمعنى تتناسب المناصب القيادة بعدد سنين الابتلاء،لهذا سميناها الشرعية الابتلائية،وهي كسابقتها تدل على عدم وضوح المعايير العلمية الواجب توفرها في القيادة والمؤسسة.

هـ– فقد النزوع نحو العمل الجماعي وتغييب الاجتهاد الجماعي في العمل السياسي والتغيير الاجتماع:الزعيم بمجرد نيله المنصب،يسعى جاهدا إلى إيجاد مجموعة تأتمر بأمره وتخضع لتوجيهاته عوض الخضوع للمبادئ العامة التي تحكم المؤسسة سواء كانت سلطة(تنفيذية،قضائية،إعلامية،...) أو حزبا أو حركة اجتماعية،...يحكمنا التخلف والانحطاط في تصورنا للعمل الجماعي(٧).

و– غياب عقلية التنازل لصالح المجموع،المعبّر في الغالب عن التوافق لمصلحة الأمة:المفتقد لنزعة العمل الجماعي داخل مؤسسته الأصلية،ينزع إلى

إلغاء الآخر وإن أبدى شيئا من النزوع إلى قبول الآخر،إذ لو كان كذلك لأبدى قبول الأمر في مؤسسته قبل التبجح بالتبني الأمر أمام الملأ،...ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن يبحث عن التوافق لصالح الأمة،بقدر ما يسير حيث تجره المنفعة الأنانية،سواء كانت منفعة زمرة أو مجموعة توافقت أهواءها....

إن البشر بطبعهم ميالون إلى تصديق الحال (التصرفات)بدل المقال (التصريحات)؛ فمن أراد بيان ميله إلى التوافق من أجل مصلحة الأمة، فليبد ذلك في مؤسسته ومع أقرب الناس إليه.

حصلت تلك النقائص بفعل مجموعة من العوامل،سميتها في هذه الورقة المشوشات الفكرية،وهوما نحاول عرضه في الفقرة اللاحقة.

ثانيا : المشوشات الفكرية

تعتبر المنظومة التربوية (التعليم بجميع مراحله وفلسفته ومقاصده)مصنع الإنسان الذي يراد استنساخه،إذ تعتبر المنظومة التربوية سلسلة مترابطة من المراحل التي يمر بها الإنسان في تكوينه بدء من مرحلة التعليم الابتدائي وانتهاء بالتعليم الجامعي،إضافة إلى التعليم الموازي كالأسرة والمساجد أوغيرهما،ويطرح بهذا الصدد سؤال أساسي مؤداه:ما هوأنموذج الإنسان الذي يراد تكوينه في منظومتنا التربوية الرسمية وغير الرسمية؟

نسجل بهذا الصدد الملاحظات الآتية:

أ – **النظام التعليمي في بلداننا يصنع وعيا مزيفا،** بسبب شغل التلاميذ والطلبة بمشاكل وهمية لا وجود لها في غير مخيلة واضعيها،رغبة منهم في تصفية حسابات سياسية أو فكرية مع جهة معينة،بغرض إقصائها من التأطير الاجتماعي؛ فأصبحت المنظومة وسيلة وآلة في يد الساسة ومفكريهم في تصفية الحسابات مع المخالفين وخاصة المناوئين لمشاريعهم.([8]) وقد حاول الغالب الوقتي الاستحواذ على التعليم لصناعة وعي جديد يقبل الغزو ويؤسس ويؤصل لقبوله،مما قد يفضي إلى اجتثاث التفكير في مقاومته فضلا عن مقاومته بالفعل،وما مال أصحاب الحظوة فينا إلى قبول هذا المسعى أو السعي إلى الحد من آثاره السلبية إلا بسبب غربتهم عن مجتمعهم، وهو أكبر دليل انحطاطهم وتخلفهم عن ركب أمتهم من الناحية الفكرية على الأقل،إذ لو كان لهم بالأمة اتصال ما رضوا بهذه الأفكار المسمومة،ولأعلنوا أنهم مع أمتهم في خندق واحد...لكن هيهات؛ فالانتماء ليس كلمات جوفاء، بل هو التزام وتضحية.

ب – **التعليم الانتخابي القاصر**:عمل التعليم على تنمية قدرات الباحث في مجالات العلوم التي لا أوطان لها،ولكنه يفتقد إلى العلوم والخلفيات الفكرية التي تضع جداول لصب تلك العلوم في النهر العام لتقدم الأمة،بحيث تيسّر للتلميذ النجث في فيلق المرافعة عن مصالح الأمة بتمثل آلامها وآمالها،ويجعل من التقدم قضية الجميع.

ج – **شغل بالمعارك الهامشية**:تشتغل بعض برامج التحصيل ببعث المسائل الميتة من مرقدها،بحيث يدفع الباحث إلى صرف طاقات لا حصر لها فيما لا يفيد الأمة في حاضرها أو مستقبلها،بل يشغلها عن التفكير في مصيرها الحضاري والتربوي والاجتماعي فضلا عن السياسي،ولا يبعد من ذلك تعليق نهضتنا بتقليد الغرب في كل ما نقل عنه،دون تمييز ودراسة موضوعية،إذ يتصوّر مقلّد الغرب خصومات وهمية بين دين الأمة وتقدمها المادي والمعنوي.

د – **الاشتغال بما يفرّق**: الأدهى والأمرّ أن يشغل الباحثون بما يفرّق الأمة،وتيسير استحمارها ثم استعمارها بأقل التكاليف، وقد كانت تلك المعارك –في الغالب– استجابة لنزوة حاكم أو خضوعا لضغط غالب.([9])

هـ – **الغفلة عن المشاكل الحقيقية(الأسئلة المبعدة)**:يعاد أسئلة النهضة والتنمية والتقدم ... وتعويضها بخصومات وهمية الرابح فيها خاسر،خصومات يحكمها الانتصار للنظام السياسي القائم أو خضوعا للمجموعات (محلية أو جهوية أو دولية) الضاغطة في الساحة السياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية.

و– **قصور النظام الاجتماعي ومضاعفاته الثانوية**:

– **السلطة مكسب**: اجتماعيا مازلنا منذ لحظة الدولة الوطنية(خروج الاستعمار) إلى يومنا هذا نكرّس فكرة أنّ السلطة مكسب لا يمكن التنازل عنه،فأصبحت السلطة حامية منتسبيها والمرافعين عن كيانها السياسي،غير آبهة بما آل إليه أمر الطبقات المسحوقة إلا في لحظات الحاجة إليهم (الانتخاب،الاستعانة بهم في فض الخصومات الفكرية، تصفية الحسابات السياسية، التضحية من أجل المصلحة الوطنية أو القومية، الخطر الأجنبي)، هذا بالنسبة للأنظمة أو الأحزاب الحاكمة،أما بالنسبة للأحزاب السياسية المساهمة في المشهد السياسي،فإنها عاجزة عن تحويل فكرها الاجتماعي إلى برنامج اجتماعي (هذا إن كان لها فكر اجتماعي) يحكم الحياة العامة للمجتمع، بسبب عدم امتلاكها آليات تحويل الأفكار إلى واقع، بسبب المنظومات القانونية التي تضعها القوة المتحكمة في الفعل السياسي، كأن

الحاكم مانع دون تحويل الفكر السياسي إلى وقاع اجتماعي، زيادة إلى رضا بعض الممثلين السياسيين بالدور الذي تحدده له السلطة الحاكمة...وهي تصرفات تدل بنفسها على انحطاطنا حكاما ومحكومين راعي ورعية.

- **إنكار جدوى الفعل السياسي:** زهد عموم أفراد المجتمع في الممارسات السياسية، بل أفضى بهم الأمر إلى إنكار جدوى الممارسة السياسية في بلد يعجز فيه الممثلون السياسيون عن تحويل فكرهم السياسي إلى برنامج سياسي يحسن الأوضاع الاجتماعية للناس (وهي اللغة الأكثر فهما لدى عموم الناس)، مما يدفع الناس إلى الاستقالة الطوعية من التفكير في مزاولة السياسية فضلا عن مزاولتها بالفعل.

- **قبول العدوان في المسائل الاجتماعية:** الاستقالة من مزاولة السياسية بسبب ما أشرنا إليه،يفضي إلى التأسيس لسلبية قاتلة،تفضي في كثير من الأحيان إلى قبول العدوان الاجتماعي،بسبب فقد المجتمع الثقة في القدرة على تحويل غضبه السياسي إلى برنامج سياسي،وذلك بسبب ضعف الأداء السياسي والعجز عن وضع آليات جديدة تتجاوز المعوقات التي وضعها المتحكم في سوق السياسة والاجتماع،وقد تتنقل فقد الثقة إليه،فيفقد الثقة بقدرته على تجاوز المعضلة القاتلة،فيصبح العدوان مقبولا لا مفر من قبوله،لهذا أؤكد أن الممارسة السياسية الراشدة لا بد أن تعمل على إيجاد آليات تسمح بمشاركة أكبر في تسيير شؤون الأمة والمجتمع،وإلا ستؤسس لمؤسسات عميلة بسبب سوء تصرفنا السياسي،وقد ولد هذا الخلل آثارا جانبية خطيرة،لعل من أهمها:

التسيّب والانحلال: ظهر التسيّب والانحلال بمفهومه الاجتماعي الدال على الطلاق البائن مع موروث الأمة وثقافتها،فلا يعار أي اهتمام لقيم المجتمع في مزاولة السياسة أو تسيير الإدارة؛ فنرى الإداري فاقدا للأمانة، سارقا،عميلا، مختلسا، بل نراه موصوفا بكل الموبقات التي يأنف عن الاتصاف بها عموم الناس فضلا عن خاصتهم.

قبول الغزو الفكري: هيمنة التسيّب والإهمال الاجتماعي،كان سببا في إهمال الإحساس بالانتماء،فيقبل الغزو من غير إنكار أو تفكير في مقاومته، والأدهى أن يتحول الغزو إلى حالة عادية قابلة للتعايش،بل قد تصبح جزء من المشهد الثقافي والسياسي العام للأمة،وفي ذلك أقصر طرق صيرورة الغزو عاملا ضاغطا

وصانعا لوعي مغشوش يرتكز على العمالة بجميع معانيها الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تهيئ النفوس للقطيعة مع الإسلام: يهيئ الغزو الفكري لقبول القطيعة مع ثقافة الأمة وموروثها الحضاري، بل ويتجاوز ذلك إلى رفض خبرة الأسلاف فضلا عن الأصول التي تؤسس لرؤيتنا للإنسان والكون والحياة المادية والمعنوية،فتحول عن أمتنا وتقبل الانفصال عنها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها،بسبب التساهل في التعامل مع الغزاة الجدد، أو قبول المساومة في الأصول النظرية التي تقوم عليها رؤيتها للكون والحياة.

التشكيك في أنموذج الإنسان الذي تصنعه منظومتنا الفكرية والتربوية والحضارية والاجتماعية: القابل للقطيعة مع الانتماء الحضاري للأمة،يضطر إلى رفض أنموذج الإنسان الذي تصنعه المنظومة العقدية الفكرية الأصيلة في أصل وضعها النظري،وإمعانا في تجاز هذا الأنموذج يشكك في الأصول التي تصنعه بالكون ومكوناته المادية والمعنوية،فتصبح أصولنا مهددة بسيل جارف من التشكيك والتمويه والاتهام،بغرض تيسير الانقضاض على أهلها وتهيئتهم لقبول الاستخفاف الفكري والحضاري.

إصابة علوم الشريعة الإسلامية والعلوم الاجتماعية في فعاليتها: لا يتأتى الخلوص إلى النتيجة السالفة الذكر ما لم تحل الأساليب الجديدة دون الأفكار المحركة ومصانعها، وأول مصانع الوعي المدرسة وملحقتها (المسجد، الجامعة، الأسرة،...) ومحرك تلك المصانع المعارف المستندة إلى الوحي، المستفيدة في صياغتها في شكل برامج من تراكم الخبرة،لهذا بدأت الحيلولة دون مقاصدها الأصلية،بتحويلها عن الهدف المنشود،فتصاغ بشكل يصنع وعيا مزيفا أو على الأقل يمنع صناعة وعي صحيح،كأن يصبح السؤال المركزي بعد التعلم مسائل التاريخ والوقوف دونا أو الاهتمام بالفروع والمذهب عوض الأصول التي تصنع وعينا بالكون والحياة.([10])

ذلك هو وضع أمتنا، فما السبيل إلى تجاوز الخلل الطارئ،والتأسيس لمستقبل أحسن،هذا ما سميته في الورقة المقدمة بالمأمول.

المأمول في زمن التخلف:

المخرج من أزمة الانحطاط يفرض من زاوية وظيفية التركيز على بيان أساسيات الخروج من دائرة التخلف،وقد أجملتها الورقة في مجموعة من الأفكار الرئيسة:

عودة جميع أفراد الأمة حكاما ومحكومين إلى الانتساب الإيماني بوصفه عامل التحريك الأساسي.

الابتعاد عن فكر الوصاية والإقصاء.

إيجاد الوعي الحضاري المعبّر عن الانتساب الإيماني.

إبداع آليات جديدة تترجم انتماءنا إلى الأمة في منظومتها التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تعهّد الفرد نفسه بالمراقبة المستمرة،بما ييسّر له المحافظة على تغيّره ونموذلك التغيّر.

المأمول تفصيلا:

تحقيق الرهانات المنوطة بالأمة،يقتضي التأسيس لنظرة جديدة، تتجاوز الطرح الذي يقسّم الأمة إلى سلطة ومعارضة،فيجب أن تتضافر جهود الجميع سلطة ومعارضة وباحثين ومعلمين ومتعلّمين وسائر أفراد المجتمع على القيام بوظيفة التغيير المؤسس للتقدّم، بالنسبة للقادر معرفيا ونفسيا، وبهذا الصدد يجب أن نعمل على تحرير الفكر الاجتماعي للأمة من ضغط الواقع من خلال اكتشاف الخطر الذي يتهدد الجميع سلطة ومعارضة، سواء تعلّق الأمر بضغط داخلي،يرجع إلى السلطان أو الرعية. أوخارجي يرجع إلى القوة الغالبة في اللحظة الراهنة(أمريكا) ينبغي بهذا الصدد أن تتفق كلمة الباحثين على أن التقدم وتجاوز التخلف تكليف عيني في حق الأمة المسلمة جمعاء، حكاما ومحكومين، ومن هذا المنطلق وبغرض تمكين هذه الفكرة ينبغي العمل على أن تتحول فكرة التقدم والسعي إلى تحقيقه هدفا للجميع سلطة ومعارضة، ويسمح هذا المسعى بتحقيق مكاسب عظيمة، ويجنبنا الوقوع في مطبات خطيرة:

1 – تحرير الفكرة من الضغوط:

تصبح الدعوة إلى التقدم ملكا مباشرا للأمة،فلا يمكن لأعداء الأمة أن يجعلوا محاربة المخالف السياسي الإسلامي مطيّة لمحاربة الدين الإسلامي نفسه،مما سيسمح بالتمييز المطلق بين الدعوة إلى التقدم كضرورة حضارية والعمل السياسي بوصفه تصورا إنسانيا للمشروع السياسي الإسلامي في إطار إكراهات واقعية معيّنة.

2 – حضارية المسعى إلى التقدّم:

ينبغي على العاملين على التأسيس للتقدم أن يعلموا أنهم في الصفوف الأمامية للدفاع عن الموروث الحضاري لهذه الأمة،إذ بالتقدم نؤسس للخزان البشري والمادي والمعنوي الذي يسمح بالانتشار الحضاري للفكرة،بسبب تحويلها إلى مشروع عملي،وذلك أنفذ أساليب الدعوة إلى فكرة وأوضح دليل على نجاعتها ونجاحها،وهم بهذا العمل سينشئون جيلا جديدا يمثل خلفية بشرية،حرية بأن نؤتمن على حمل الأمانة إلى الأجيال اللاحقة دون أن يكونوا مقيدين بغير ما يمليه عليهم انتماؤهم لأمتهم..

3 – السعي نحو التقدم تكريس للاستقلال:

تنال الأمة من استقلال بقدر تقدمها،فالاستقلال يتناسب مع التقدم،من هذا المنطلق،ينبغي العمل على تمكين استقلال الفاعلين في مشروع التقدم عن السلطة السياسية(المقصود السلطة وليس السياسة)،وطريق تحقيق ذلك أن تعمل الأمة على تمويلها بالطاقات البشرية المؤهلة،كما يجب على السلطة أن تشيع ثقافة التقدم،بجعله هدفا لجميع المساعي التربوية والتعليمية والسياسية والاجتماعية.

4 – جعل السعي نحو التقدم فوق التحزّب السياسي:

ينبغي على العاملين للتقدم على اختلاف أماكن مرابطتهم(في أي منصب كان)، الابتعاد عن ربطه بالاشتغال بالسياسة،فحسب، بمناصرة هذا الفريق ومعارضة ذاك، لأنهم إن أصروا في مثل هذه الظروف على حصر التقدم في السياسة بمفهومها الفني وهن سعيهم نحو التقدم وامتد الاهتمام السياسي على حساب المد الحضاري المطلوب([11]) . وفي هذا الصدد لا بد من تدقيق، حرصنا على الابتعاد عن السياسي بمعناه الفني البحت(تأسيس الأحزاب ، الانتخابات، والترشيح والترشّح، والحملات السياسية التحسيسية، ..) لا مطلق العمل السياسي لأنه لا يتصور إسقاط المطلب السياسي من قائمة التكاليف الشرعية والوطنية، لأننا نرى أن فصل السياسي عن الفكري والعقدي أمر مستحيل عند عامة المسلمين فكيف بخاصتهم، ويبدو أن طبيعة العصر تفرض اختيار مسالك جديد في الدعوة إلى التقدم بجميع محتوياته التشريعية والسياسية وإن كانت السياسية غير ظاهرة للعيان وفق ما تقتضيه الإكراهات الفكرية والحضارية الجديدة.

مواصفات رجال التقدم ومسلكهم:

ينبغي أن يتوفر في مسالكيم مجموعة المواصفات الرئيسة.

أ – مركزية المصادر في خطاب التقدّم:

مركز هذه المواصفات ومدار رحاها بالنسبة للأمة الإسلامية أوالمنتسبين إليها حضاريا، يبدأ ببيان موقع القرآن الكريم والسنة النبوية في سلم المعارف الإسلامية، إذ باكتشاف هذه المنزلة تميّز العقلية الإسلامية بين المنتج المعرفي الزمني (والذي يجب أن يقرأ من قبل أهل الاختصاص قراءة نقدية)والوحي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى فوق الزمان والمكان، أي أنه يتعالى عن الخبرة المعرفية الإسلامية والإنسانية، وسيمكننا ترتيبها من تجاوز بعض مظاهر انحطاطنا الفكري والتربوي و....، إذ تسمح بتلافي الوقوع في أمراض نفسية وفكرية واجتماعية تصيب الحضارة في مقاتلها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* – تغليب الزمني على الوحي كان سببا في تغييب البعد الوظيفي للدين الإسلامي، إذ يرجع إليه بعث الخلافات الفرعية في الأمة وتغليبها على ما يجمعها، فيكون تقديم الفرع على الأصل سببا في ضياع الأصل والفرع على حد سواء ، وفي ذلك أضح مظاهر الانحطاط المعرفي والقمي.

* – تغليب الزمني على الوحي كان سببا في إشاعة القراءة التبر كية للقرآن الكريم وابعاد التلاوة الوظيفية التي يخشع لها القلب ويقتنع بها العقل وتخضع لها سائر الجوارح،فكانت تلك الأساليب في تأسيس تديّن متخلف غارق في التاريخ على حساب الرؤية الحضارية التي يؤسس لها الدين.

* – تغليب الزمني على الوحي كان سببا في إبعاد القرآن الكريم والسنة المطهرة من مصاف المصادر اليقينية في مجال المعارف المتعلقة بأمور العقائد(الإلهيات، النبوات، السمعيات، نشأة الكون، مصير الإنسان، بداية الإنسان الأول) أو المتعلقة بمصالح الدنيا في المعاش وتنظيم شؤونه،فأقحم العقل فيما لا يملك آليات الخوض فيه، فأصبح تائها في بيداء لا ساحل لها. وحصر التديّن في استنساخ نماذج تاريخية لها ظروفها الخاصة، وأهمل البعد الحضاري للدين.

ب – واقعية التفاعل مع المعطيات:

يجب التفاعل الموضوعي مع الإكراهات الواقعية، وينبغي اختيار أسلوب جديد يركّز على محركات الفكرة الإسلامية من الناحية التربوية الروحية بوصفها الخزان الرئيس لأي تغيير حضاري أو فكري أوسعي محتمل نحو تقدّم، وبهذا نجنّب الأمة بوصفها معبّرة عن توجه حضاري إنساني الوقوع في كثير من المطبّات القاتلة، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- الدخول في معركة أعد الخصوم ظروفها المادية والمعنوية والنفسية.
- التفاعل النفسي التشنجي مع أحداث بالغة التعقيد من حيث الموضوع والمنهج (وهو ما دبّر بليل للعامة أومن سار في ركابهم من المتعلمين).
- الخلط بين القضايا الإستراتيجية والمسائل التكتيكية في التأسيس للتقدم.
- إبعاد التوجهات الحضارية من ساحة الفعل الفكري وتمكين العقلية الجزئية من القرارات المصيرية، وقد كانت هذه العقلية سببا في الانصياع إلى الأحداث بعقلية الصبية الذين لا يعلمون من مقاصد الأمور وحقيقتها شيئا، فتأخرت الأمة بفعل تلك التصرفات الرعناء أو على الأقل صرفت طاقات عظيمة في مجالات لا طائل منها.

ج – الولاء للأمة عوض الولاء للأحزاب والتيارات الفكرية:

تعددت مناحي الحديث عن هذا الهدف، فيمكن أن يتناول من جهة العمل الفردي كما يمكن تناوله من جهة التوجه الحضاري الذي يجب أن يمكن الفهم الجماعي للأمة ووعيها، فيظهر في التعامل المذهبي كما يظهر في العمل الحزبي..وهكذا في سائر مناحي الحياة، لهذا يظهر وجوب الولاء على مستويين أولهما مستوى العمل الحضاري وثانيهما مستوى العمل الفردي.

أ- الولاء على مستوى العمل الحضاري

يجب أن يعاد الولاء للإسلام كتوجه حضاري عام شامل لكل مناحي الحياة على مستوى كل المجتمعات الإسلامية ولا سيما على مستوى النخب المثقفة، وقد جسّد هذا الفهم كثير من علمائنا سلفا وخلفا، وفي هذا المقام قال أحدهم:"أنا رجل شرفني الأول والأخير أن أقول وزاء محمد ﷺ **إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له"(الأنعام162-163)**أنا أشعر حين أكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي، وحين أفكر بأن هو الذي أسرج مصباح عقلي بأني يستحيل أن أسوي بين مؤمن وكافر ، أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها في عمل ما لرفع مستوى البشر..."[12]

وقد تجسدت تلك الغاية في العمل على تمكين الولاء للإسلام من الزوايا الآتية:

يجب على المهتمين بالتقدم بإصلاح الواقع الإسلامي أن يعملوا على فهم وإفهام غيرهم بأن الولاء للإسلام كتوجه حضاري - هدفه إصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلم بالعدل ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة - ينبغي أن

ينظر إلى الإسلام من جهة كونه" ينظم شؤون البيت والشارع، والمدرسة والديوان، وعلاقات المرء بنفسه والآخرين، وواجباته في الحرب والسلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة"([13])، خاصة وقد عرف القريب والبعيد أن الإسلام نظام متكامل. وأن إنفاذ بعض تعاليمه مع غيبة البعض الآخر لا يقيم مجتمعا إسلاميا. وأن إصدار فتاوى في الحالات العارضة مع إغفال الملابسات قد يسيء إلى الإسلام أو إلى الأمة أو إليهما معا.([14])

لا يمكن تحقيق الولاء للإسلام إلا إذا فهم أن الإسلام كدين للحضارة الإنسانية فوق المذاهب الإسلامية نفسها، وحق لنا القول بأنه الأصل الذي انبثقت عنه تلك الفروع المعبّر عنها بالمذاهب(بصرف النظر عن تقويم تلك المذاهب). لهذا يجب الابتعاد عن النفخ في الفروع الصغيرة التي ستقضي مع مرور الأيام على الأصول نفسها، وفي هذا سياق يقول أحد أعلامنا:" لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات. أما البحوث(ذات الدور الحضاري الفعّال)في الفقه الإداري والاقتصادي والسياسي فهي قليلة، ولعل بعضها كان مقلقا."([15])

ويؤكد التوجيه نفسه بقوله:" ولازلت أرى أن فقه الفروع لا ينبغي أن يقسم الأمة شيعا، ولا أن يصرفها عن أركان الإسلام الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الأركان..."([16])، ويكرر النصيحة نفسها بقوله:"إنه في بعض الفروض والتفاصيل، ما لا يجوز أبدا أن يفسد ودا أو يوقع خصاما. إن الأساس الذي نحرص عليه هو العقائد والأخلاق. إنني أميل إلى مدرسة الرأي مع احترامي لأحمد بن حنبل وتقديري لصلابته وتقواه...وأشعر أحيانا بأن الخلاف – في الفروع والتفاصيل–جزء من المجتمع الواحد –... وينبه في السياق نفسه إلى عدم تأثير الخلافات الفرعية في الهم الحضاري لدى الأمم الأخرى، حيث يقول:" ففي الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين، إنهما متفقان في الولاء لدولتهم والانتصار لها عالميا، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر في شؤون شتى، فلماذا يتطيّر البعض من الخلاف الفقهي وينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور"([17])

يجب أن يكون الولاء للإسلام بشموله، لأن الإسلام" ليس نظاما من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء، ويهمل ما يشاء، وإنما هو نظام منبثق رأسا من عقيدة التوحيد ومعبّر عنها في واقع الحياة الاجتماعية([18])

ضرورة توجيه الطاقات إلى البعث الحضاري بتمكين الولاء للإسلام من النفوس، وفي هذا السياق يستحسن التقليد في أحكام الفقه للعامة ومن في حكمهم، ومن المستحسن أيضا حثهم على توجيه قدراتهم العقلية إلى البحث الدقيق في مجالات تخصصهم بما ينفع الأمة في مشروع النهضة. وفي ذلك يقول أحد المهتمين بالدعوة الإسلامية في العصر الحديث: "استحب التقليد المذهبي للعامة ولأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول، وأعني الأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أوعسكرية لابد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، فإن مصاب المسلمين في هذه فادح فاضح"([19])

يفرض الولاء للتوجه الحضاري من الناحية المحلية " الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي " أما الناحية العالمية فينبغي " الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة"([20])، وسينتج عن ذلك العمل تجاوز تخلفنا الذي كان بعيد المدى بفعل الفرقة التي مزقت جماعتنا وأذهبت ريحنا وأحبطت سعينا([21]). كما يفرض حسن التعاون مع جميع التيارات الفكرية النزيهة في مجال السعي نحو التأسيس لمشروع النهضة.

إن هيمنة الولاء الحضاري لدى المسلمين سيقضي لا محالة على التعصب وعلى تقديم المذاهب عن الولاء لله، كما سيتحقق بهذا الولاء العمل على التمكين للإسلام بجميع أبعاده الوظيفية التي تنسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني، فيظهر الولاء في الأداء السياسي والاجتماعي مثل ظهوره في العبادات الفردية إذ الهدف تحقيق مطالب شرعية، بل هذه الأفعال في حقيقة الأمر من أبعادها الوظيفية.([22])

ب-الولاء على مستوى العمل الفردي

لعل من أهم مظاهر العزة وامتلاك أوليات مؤهلات النهضة على المستوى الشخصي، الولاء الفردي المتجلي في القيام بالواجبات الشرعية دون خوف أوخجل أوخضوع لضغوط الواقع الفكري أوالسياسي. ولهذا يستغرب من مسلم هذا العصر الذي يستحي من الصلاة بينما ينادي غيره بعباداته دون وجل أوخجل رغم كونها باطلة عقلا ونقلا.

إشاعة النقد والتمحيص أهم عوامل النقد: يجب على المسلمين عدم الضيق بالنقد الموجّه لهم، بل يجب مجابهة الشبه بالردود العلمية المتزنة تمكينا لفكرة الولاء بمحتواها العقدي والفكري، وفي هذا السياق وتنفيذا لهذه القاعدة ناقش علماؤنا المستشرقين والعلماء المعاصرين أومن لفّ لفهم، كمناقشة الغزالي لخالد محمد خالد في دعوته إلى إبعاد الدين الإسلامي عن السياسة، وخاصة في قوله:"إن الدولة عرضة للنقد والتجريح، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار، فكيف نعرّض الدين لهذه المهانة ؟

فقال الشيخ الغزالي:" الدولة عرضة للانتصار والانحدار، فإذا تأسست على الدين فأي ضير على الدين أن يكون في حال النصر زماما يمنع " تنتصر من الطغيان، وفي حال الهزيمة حافزا يغري بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان، ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها فهل ينقلب الحق باطلا لأنه انخذل في معركة؟ أي عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التي تنافح عنه؟([23])، لهذا فالهزيمة تبيّن قلة حيلة المدافعين، مما يوجب عليهم العمل على تحسين قدراتهم وتحصيلهم العلمي وشحذ هممهم ليتسنى لهم تحقيق الأمر الإلهي في كل مناحي الحياة، لا أن يبعدوا الدين عن ميادين الحياة، لأنه غير متلائم مع الشريعة الإسلامية أصولا وفروعا وخبرة، ويعود الدين مهمته ببعث روحه من جديد.

د- إعادة الروح لعقائد الإسلام وشرائعه:

لا يعود الدين الى وضعه الأصلي كعامل تحريك مؤسس للحضارة الإنسانية، إلا إذا عادت الروح إلى تعاليمه، وتبعث الروح في تعاليم ديننا العقدية والتشريعية والأخلاقية ....، مركزين على أبعادها الوظيفية التي تتجلى في جميع آثار الفعل المنتظر من المسلم.

تتجلى هذه الروح في الجانب النفسي والمعرفي الثقافي، كما تظهر في الفعل السياسي والاجتماعي والفكري بصفة عامة، وعموم تلك الأهداف المتوخاة تبيّن مركزية البعد الحضاري في الخطابي الإسلامي الراشد الذي يجعل من أهم مقاصده بعث الروح في تعاملنا مع تعاليم ديننا.

1 -إعادة الروح للعمل الفردي

يتوخى في هذا الجانب تحقيق مجموعة الأبعاد الوظيفية المنتظرة من الالتزام بالشريعة" نظرا لابتعاد المسلمين عن مقاصد الشريعة وغايات عقائدها، وتتوجب عملية إعادة الروح لتعاليم ديننا في الجوانب المعرفية أولا والنفسية ثانيا والتنفيذية ثالثا.

أ/الجانب المعرفي :

ينبغي على الصحوة الإسلامية ورجالها العمل على" إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها في الداخل والحديث عنها في الخارج"، لأن هذا العمل"أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسي لبلد ما في إحدى القارات...ما قيمة الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا"([24])

ويجب في هذا السياق التنبه إلى ما أصاب الثقافة الإسلامية من قصور في عدة جوانب يمكن اختصارها في جانبين أحدهما تأصيلي وثانيهما نقدي.

ومن أهم تجليات التمكن المعرفي الوعي الشامل، وعي الرسالة ووعي الذات ووعي الموقف، فيعرف فكرته ونفسه وموقعه، وعدوه، وماذا يريد في الفترة المحددة وكيف السبيل للوصول إلى ذلك المبتغى([25])

الجانب التأصيلي:

حثّ علماؤنا على استثمار مجموع جهودنا الفكرية في التأصيل للفهم الصحيح للدين الإسلامي الذي تأثر بفعل الأيام، حيث تحول عند كثير من الناس مراسم وشعارات لا تكوّن فضائلا ونظاما أوأن تمس ظواهر الأشياء ولا تتغلغل في صميمها "([26])

وفي هذا الصدد يوجّه العلماء إلى القراءة الوظيفية والعمل الثقافي، إذ القراءة عامل مركزي في السعي نحوالتقدم، القراءة هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم، وكثيرا ما يكون قصور المفكرين والمناضلين راجعا إلى فقرهم الثقافي، ولا طريق لتجاوز ذلك بغير القراءة الموسوعية الشاملة، يقرءون كتب الإيمان، ويقرءون في كتب الإلحاد، ويقرءون في كتب السنة، كما يقرءون في كتب الفلسفة، وباختصار يقرءون كل منازع الفكر البشري المتفاوتة، ليعرفوا الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة.([27])

وقد تجلى ذلك الاهتمام الثقافي بتناول ميادين الثقافة الإنسانية فرعا فرعا، وخاصة تلك لها صلة بالواقع العربي والإسلامي المعاصر، زيادة إلى إحاطتهم بثقافتهم، وكل ما من شأنه خدمة مسألة التقدم في المجتمع.

واهتماما منهم بالجانب التأصيلي المؤسس لوعي التقدم، دعوا إلى إعادة صياغة بعض العلوم الفاعلة في حياتنا الفكري والاجتماعية، بما لها من أثر في صناعة الوعي بالذات واللحظة الحضارية وما تفرضه من رهانات.

الجانب السياسي والاجتماعي :

العمل على تكريس الواقع السياسي على الحال الذي عليه، من خلال الابتعاد عن نقد الواقع السياسي بسبب فقد روح السعي نحو التقدم في تصرفاتنا السياسية والاجتماعية، وخاصة في بيئة تميزت بقهر واستبداد سياسيين لا مثيل لهما، من هذا المنطلق وفي إطار محاولة بعث الروح في التزامنا تجاه أمتنا يجب تثمين القيمة الوظيفية للدساتير التي تساهم في التأسيس القانوني للحرية أولا، وقيمة تلك الحرية في المساهمة في تنوير الرأي العام بالفكر الصحيح والمساهمة في نموه وازدهاره ثانيا.مرجع ذلك كله وضوح الخلفية الفكرية.

وضوح الخلفية المعرفية للمسعى التقدم:

- الخلفية العقدية والفكرية:

العقيدة الإسلامية في جانبها النظري، أساس تحريك المسلم وتجنيده اجتماعيا، فهي التي تسمح بتجنيد أصحابها في سلك الهم الاجتماعي المؤسس على رؤية حضارية معينة، ذلك أن فاعلية الفكرة ترجع أساسا –بعد صدق وقيمتها من حيث هي – إلى قدرتها على تجنيد الناس، ودعوتهم إلى الانخراط في سلك التغير الاجتماعي ثم المساهمة في التغيير، ذلك أن تلك العقيدة لا تزال حية فينا[26]، لما تملكه من تصور متميز عن الحياة والإنسان "وفي مدرستي العقائدية...الإنسان هوالمخلوق الوحيد من بين كل مظاهر الوجود الذي يملك أربع خصائص ممتازة...وهي الوعي والإرادة والحرية والاختيار والقدرة على الاختيار والمثل والخلاقية"[27]

هذه الخصائص بقدر ما تمنحه السيطرة والقدرة على الطبيعة تجعله مسؤولا أمام هذه الإرادة الواعية الخلاقة المطلعة والمافوق انسانية، أي الشعور الذي تنبعث منه معجزة الحركة والنشاط والحياة". وهذا يفرض إعادة النظر في

رؤيتنا وفهمنا الديني، والعودة إلى الإسلام الحقيقي، والوقوف على الروح الحقيقي للإسلام الأول"[30]، الإسلام الذي يدعو أتباعه من منطلق وجودي واقعي إلى الارتفاع بالواقع إلى مستوى المسؤولية الاجتماعية التي يفرضها الدين الحقيقي غير الممسوخ، الدين يرتفع بأصحابه إلى أرقى مستويات التقدم النظري(التصوري)، ومركز تلك المحركات التوحيد.

التوحيد أبرز محركات التقدم:

التوحيد مركز العبادة في الإسلام ومحرك فعالية المسلم في الحياة بجميع مكوناتها، ولهذا التوحيد تجليات ثلاث، أولها صلة الإنسان بربه، وثانيها صلة الإنسان بسائر البشر، ثالثها صلة الإنسان بسائر المخلوقات الكونية.

أ – صلة الإنسان بربه:

قوام التوحيد في جانبه الإلهي، وصف الله بجميع صفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص، لهذا فصلة الإنسان بربه هي صلة عبادة وتعظيم وإجلال وخضوع لما شرع، وبهذا التميّز من جهة الصفات والأفعال. كمال إلهي يقابله نقص بشري، قوة إلهية يقابلها ضعف بشري، وغنى الله يقابله فقر البشر إلى خالقهم، وقد عبّرت الألفاظ القرآنية عن تلك المعاني بأبلغ تعبير، "الله أكبر" تفيد صيغ الكمال المطلق وتعبير عن الحاجة البشرية المطلقة لخالقهم، لأنه أكبر من جميع الوجود[31]، ومؤسس لتجاوز التخلف الذي يمثله الشرك والكفر.

ب – التوحيد في جانبه البشري:

يؤسس التوحيد فكرة وحدة البشر من حيث مادة خلقهم وعناصر تواجدهم وبقائهم ووحدة مصيرهم، فالإنسان فعل من أفعال الله، خلق الله جميع أفراد الأسرة البشرية من مادة واحدة(تراب)جعل تخلقهم على نسق واحد(التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد(الموت). وهوما يؤسس لصون كرامة الإنسان في جميع أحواله، ذلك أنها نظرة مبنية على جوهر الإنسان.

يمثل التوحيد في جانبه المتعلق بالبشر خلفية نظرية أساسية مؤسسة لنظرة تكريمية لبني البشر جميعا، والتي منها تبدأ فكرة التقدم المبنية على مساواة البشر جميعا، مجاوزا في ذلك الفكر القائم على التمييز بجميع أشكاله.

– دور التوحيد في تحرير الإنسان:

يحوي التوحيد في العقيدة الإسلامية من ناحية مضامينه البشرية عنصرا فاعلا في التأسيس الموضوعي للتقدم المعنوي والنظري، إذ يؤصل للحرية[32]بتركيز

أصولها في النفس البشرية نفسها(وحدة الخلق، وحدة طريقة التناسل، وحدة المصير، ...)، من منطلق ما سبق تقريره، يعد التكبّر-بجميع صوره المعرفية أوالاقتصادية أوالاجتماعية أو...-، رأس الانحطاط والتخلف، طارئا على أصل خلقة الإنسان، ولايقل عنه شناعة قبول الاستضعاف والاحتقار، ذلك أن الله كرّم الإنسان في أصل خلقته"ولقد كرّمنا بني آدم"، وجعل قبول الاستخفاف جريمة لا تقل خطورة عن الاستكبار.

إن الإحساس بالتكريم الإلهي يمنع القوي من التكبّر والاستخفاف بغيره، ويدفع الضعيف إلى الأخذ بحقه من القوي لإحساسه بالكرامة والعزة التي غرزت في أصل خلقته.

- المضامين الاجتماعية والتعميرية للفكرة:

الهداية الإسلامية السارية في عالم الأفعال الاجتماعية كالروح الباعثة للحياة في الجسد، تخرج الحياة من دائرة العبثية إلى الغائية والمقصدية المندرجة في إطار نسق متكامل شامل لجميع مظاهر الحياة، إنها إن مكنت(الهداية) من النفس اكسبت الفعل البشري إنسانية منظورة في جميع مشمولات الأفعال. يؤكد تلك المعاني ربط بعض علمائنا وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس العيش للإسلام بالعيش لإسعاد الإنسانية، فضلا عن المساهمة في سعادة بني دينه، فينكر معقبا على أولئك الذين اعتبروا هذا الرأي(العيش للإسلام) ضيق أفق وتعصّب، متحججين بقولهم أنّ ليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، فيقول الشيخ: "نعم إن خدمة الإنسانية ...واحترامها ...هوما نقصده ونرمي إليه، نعمل على تربيتنا ...ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل المرصلة إلى تحقيق هذه الخدمة ولإيصال هذا النفع...ثم يقول"ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول: ولقد كرّمنا بني آدم"، ويقرر التساوي والأخوة بين بني جميع تلك الأجناس، ويبيّن أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول:" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

لهذا انتهى الشيخ إلى أن العيش للإنسانية لا يتم إلا بالعيش للإسلام، يؤكد هذه الفكرة قوله:" ...إيصال النفع إليها(الإنسانية) لا يكون إلا من طريقه فإذا عشت له

فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها...فهذا معنى أعيش للإسلام([33]).

كما يدعو إلى رحمة الضعيف بصرف النظر عن مظاهر ذلك الضعف أو نوعه، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، وحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه، ليس هذا فحسب، بل يدعو إلى الإحسان العام، ويحرم الظلم بجميع وجوهه، ويأمل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس. قال تعالى:"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب إلى التقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"(المائدة 6) واللفظ عام يشمل الظلم بجميع أصنافه، فلا يقصر كما هو شائع على النواحي الاجتماعية والسياسية فحسب بل يندرج تحته جميع مضامين الفعل الإنساني، ولعل من أهم مشمولاته الظلم المعرفي الذي كان وما يزال أهم أسباب تدمير جسور التواصل بين العقلاء على مر تاريخ الإنسانية.

ونظرا للمركز الذي تحتله المسألة الاجتماعية في البنية الفكرية للعقيدة الإسلامية يمكن تجنيد المخالفين في سلكها، بما فيهم العلمانيين الصادقين في تبني العدالة الاجتماعية، وخدمة المستضعفين و...لأن المنطلق الاجتماعي من الدين يستطيع معه المخالف الصادق أن يسهم بقسط وافر في تحقيق المطلوب الاجتماعي.

- مسلك التأسيس للدين:

التقدم فكرة وحالة نفسية قابلة للتجسيد، والإنسان المتخلف صاحب عقل متخلف، وتبدأ رحلة تقدمه بتحرير عقله من أسر المعارف السابقة وأقوال الأجداد والآباء، وهو ما احتفل القرءان به، قدعا تأسيس العقيدة على العقل في أصل التوجه إلى الاقتناع، أما مباشرة الفعل وانتظار الثمرة فإنها من مشمولات القلب، لهذا كان أول ما يطالب به المؤمن الإقرار بالشهادة بعد النظر في الشواهد المبثوثة بين يديه في الآفاق والأنفس، ثم ينتقل إلى التمثل القلبي لمطالب الشريعة، بوصف القلب سلطان الجسد، ويتجلى هذا المسعى في أن البرهان أساس الاعتقاد.

السمات العامة لحركة التقدم المأمول:

التأسيس لعمل علمي مؤسس للتقدم يفرض تهيئة ظروفه الموضوعية، وعلى رأسها تربية روحية راشدة وولاء معرفي وقلبي وعقلي للفكرة.

1/يعمل جميع المهتمين بمسألة التقدم على جعل التربية الروحية عنصرا مركزيا في إيجاد الفاعلية، لأن أزمتنا أخلاقية أكثر من أن تكون معرفية، والتربية الروحية في هذا السياق ليست تربية سلبية وفق مسالك البعض، بل هي عملية إيجابية يتغير بموجبها موقف المربى من الحياة بجميع مضامينها، بمعنى أن الوظيفة الأصلية المنتظرة من التربية الروحية هي **تصفية القلب عما سوى الله ولله تعالى ، وفي ذلك أكبر عوامل تهيئة المسلم للتقدم.**

2/يعتبر الولاء في جانبيه المعرفي والتربوي النفسي، ويتمكنه من المجتمع ستقل ولا شك عناصر التصادم فتلغى بذلك العقلية الصدامية من المجتمع، فتعود إلى المسلم أبجديات أسلمة الوجه لله تعالى، فترجع إليه ابتسامته وتعامله الإنساني حتى مع المخالفين في الدين، وحسن ظنه بإخوانه.

3/الحفاظ على التنوّع الموضوعي في المجتمع سواء كان تنوعا معرفيا أواجتهاديا أونفسيا أومسلكيا أومنهجيا في إطار الولاء لله تعالى ، فهذه حقائق موضوعية من رام تغييرها فقد طلب المحال في الحاضر والمستقبل .

4/الحفاظ على التنوّع في إطار الولاء لله تعالى بوجب وعيا بما يحيط بنا محليا ودوليا من الناحية السياسية والمعرفية والثقافية والحضارية.

5/ينبغي التفكير في الطرائق الموضوعية لتحقيق مقاصد فرعية دائمة ما دامت الحياة، ولعل من أهم ما تتعلق به الهمم ما موجزه النقاط الآتية:

أ/العمل على الحفاظ على مكاسب التقدم بجميع أشكاله الاجتماعية والمعرفية والأدبية والسياسية.

ب/العمل على تحرير مساحات إضافية للتقدم، وإذا وقع التناقض بين تحرير مساحة وفقد موقع يحسن حسب تقديرنا دراسة المعطيات بشكل جيد وإن كان الغالب تقديم درء المفاسد على جلب المصالح. ([34])

ج/تجاوز فكرة وحدة مساعي ووجهات التقدم لعدم موضوعيتها أولا وعدم عمليتها ثانيا، ولكن ذلك لا يلغ التعاون والتآزر بوصفها مطالب شرعية دائمة وثابتة.

د/التكثيف العملي مع هذه الضرورات الموضوعية يوجب العمل على تنويع مساحات المرابطة دون مشروع التقدم،كل في دائرة اختصاصه وفق ما يخدم المشروع الحضاري.

الهوامش :

[1]- تصب في هذه الخانة أغلب التيارات اليسارية الإقصائية،إذ لاهم غير التعليق على المخالفين الفكريين،وخاصة الاتجاه الإسلامي،انظر مثلا تصريحات الحركة الاجتماعية الديمقراطية في الجزائر.

[2]- ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في بلاد الشم على أيد النصارى الذين استوحوا أفكارهم من رجال التنصير الأوربيين والأمريكيين.

انظر كتابنا بديع الزمان النورسي،وإثبات الحقائق الإيمانية -المنهج والتطبيق-37-43،وأنظر كيف هدمت الخلافة الإسلامية،عبد القديم زلوم19-34،ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في بلاد الشم على أيد النصارى الذين استوحوا أفكارهم من رجال التنصير الأوربيين والأمريكيين.

انظر كتابنا بديع الزمان النورسي،وإثبات الحقائق الإيمانية -المنهج والتطبيق-37-43،وأنظر كيف هدمت الخلافة الإسلامية،عبد القديم زلوم19-34،انظر التبشير والاستعمار /الخالدي،وفروخ ص 224-232 ،التبشير والاستشراق /عزت الطيطاوي 44،حاضر اللغة العربية في بلاد الشام/سعيد الأفغاني 14-17،196.....

[3]- التجربة البرلمانية في الجزائر،أوتجربة المشاركة في الحكم،بينت أن الممثلين في تصرفاتهم السياسية كسائر السياسيين،وقع كثير منهم صرعى التهالك على الدنيا وفتنها المادية(المال،المسكن،...)أوالمعنوية(القرب من السلطة،الإثبة،...)...وقد بلغ الأمر ببعضهم حد نسيان متطلبات تمثيل الأمة في تصرفاته السياسية والاجتماعية

[4]- نظرة سريعة في ردود الإسلاميين على بعضهم بعضا تؤكد تلك الملاحظة.

[5]- أنظر قائمة أعضاء المكاتب السياسية أوالمجالس الشورية،واللجان المركزية،فتجد القاعدة محكمة لدى الجميع.

[6]- أغلب رؤساء الأحزاب أوالنقابات أوالحركات،لا يزحزحون إلا بالملك الموت أوالدنيا،فتجد زعيما لنقابة مدة جاوزت الأربعين سنة،ورئيسا لحزب قريب من ذلك،وجمهورية يحكمها رئيس أزيد من ثلاثين سنة.....

[7]- أنظر قائمة القيادة بعد انتخاب الزعيم،فإناء واحد وإن اختلفت المشارب الفكرية والمعرفية.

[8]- كان برنامج التعليم يختلف من بلد إلى آخر،إلا أنه وبفعل ضغط الغالب الوقتي قد يصبح برنامجا واحد موحدا،يصنع وعيا مزيفا،ويرسخ قيما فقد الثقة في ديننا وأمتنا،ويسلمنا للغالب الوقتي فيؤسس لنا دينا جديدا قوامه،قبول الاحتلال من غير تفكير في تحرير فضلا عن تجديد،وقد بدت بعض إرهاصات هذا البرنامج تلوح في الأفق،ومنها التدخل السافر للغالب الوقتي في برامج تعليم الدين...فتحويل الدين من محرك لصناعة الحضارة إلى وسيلة في يد الأقوياء لمحاربة المستضعفين والمقهورين....

[9]- راجع الحملات الاعلامية المتبادلة بين الدول المتجاورة في منطقتنا العربية الإسلامية،وتصرفات الشعوب لا تختلف عنها،إذ تبادلون التهم بطريقة رديئة جدا،أقل ما يقال عنها،أنها تصرفات متخلفين دينيا-مخالفة القيم-ومعرفيا-لا يعرفون خطورة ما يقدمون عليه- وسياسيا -الأثر على وحدة الأمة-واجتماعيا- تفتيت المجتمع-.

[10]- جعل التعليق على المخالف(تبديعا،وتفسيقا،وتكفيرا،...)مقصدا رئيسا من درس العقيدة والعلوم الملحقة بها في بعض البلاد الإسلامية،حتى غدا درس العقيدة لا يصنع وعيا بالكون والحياة،بل يعلم الطلبة التعصب

عوض التزام... وحب الداء الى البحث، بحصر البحث في التعليق على المخالفين... وبدا الأمر يستفحل حتى جيل من المتعلمين والمعلمين لاهم لهم غير حراسة الآخرين... ملا يقولون ويتبعا يفكرون...

[11] /صبحي مصدر سابق ص291

[12] /إسلامية المعرفة العدد السابع مقالة الغزالي /الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد 150

[13] /المصدر نفسه ص149

[14] /الغزالي /معركة المصحف ص339

[15] /المصدر السابق ص143

[16] /مجلة أسلمة المعرفة العدد السابع/قصة حياة الغزالي(مقتطفات من مذكرات الغزالي) ص 167

[17] /الغزالي/الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد ص143

[18] /الغزالي / من هنا نعلم ص 29-32

[19] /انظر ما قاله الغزالي في مذكراته المنشورة في مجلة أسلمة المعرفة(العدد الخاص بالغزالي)، ويؤكد التوجه نفسه المرحوم سعيد حوى في كتابه جولات في الفقهين الكبير والأكبر

[20] /قطب عبد الحميد/خطب الشيخ الغزالي في شؤون الحياة ص 15، وانظر أليس الصبح بقريب/ محمد الطاهر بن عاشور

[21] /مجلة أسلمة المعرفة العدد السابع / قصة حياة ص 181

[22] / مجلة الموافقات العدد الرابع/ جيلال عمار /تجديد دراسة العقيدة الإسلامية

[23] /الغزالي / من هنا نعلم 51، وانظر القرضاوي المرجع السابق ص260

[24] /مجلة إسلامية المعرفة العدد السابع/ الغزالي الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد ص149

[25] /انظر الحل الإسلامي فريضة وضرورة/يوسف القرضاوي . ص 240-243

[26] /الغزالي/ دفاع عن العقيدة والشريعة ص121-123

[27] /محمد المجذوب / علماء ومفكرون

[28] – العودة إلى الذات/الدكتور علي شريعتي 51

[29] – العودة إلى الذات 363

[30] – الإمامة والأمة/ الدكتور علي شريعتي 9

[31] – الشواهد إن الله هو الغني الحميد . أنتم الفقراء من كان مستعينا فليستعن بالله

[32] /أنظر كتابنا ماهية الانسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية 54-55

[33] / أنظر العلامة عبد الحميد ابن باديس/الآثار 4/109-113

[34] شرح القواعد الفقهية/أحمد الزرقا/دار الغرب الاسلامي ط1403-1هـ/1983-151-152